
في نُهاية طريق الآلام

في نهاية طريق الآلام

تتكرّر في خبرة الإنسان، فردًا كان أو جماعة، صورة الطريق الممتدِّ بين الألم والرجاء. طريقٌ يبدو في كثير من الأحيان مُثقَلًا بالعنف، ومُحاطًا بالقهر، وممتدًّا عبر مساحات من الظلم والقتل وعدم الاستقرار. وإذ يسير العالم في هذا الطريق، الذي يبدو بلا نهاية، يقف الإيمان المسيحي أمام مشهدٍ مركزيٍّ: طريق الآلام الذي سار فيه يسوع المسيح باعتباره مفتاحًا لفهم آلام البشرية كلها، ومعنى الرجاء الذي يُولَد منها.

كان طريق المسيح إلى الصليب مسارًا واعيًا ومقصودًا. منذ اللحظات الأخيرة قبل القبض عليه، نراه في بستان جثسيماني يُصارع ثقل الألم الآتي، ويصلّي: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ» (متى 26: 39). هنا يتجلّى عمق التجربة الإنسانية في أصدق صورها: خوفٌ حقيقي، وألمٌ مُنتظر، لكن أيضًا تسليمٌ كامل لإرادة الله.

على امتداد هذا الطريق، اختبر المسيح كل أوجه الألم البشريّ: الخيانة من أقرب الناس، والظلم في المحاكمة، والإهانة العلنية، والعنف الجسدي، ثم الموت على الصليب. وكما يصفه الكتاب: «مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ» (إشعياء 53: 3) .

وعندما ننظر إلى واقع البشرية اليوم، نجد أن طريق الآلام لم يتوقّف. فما زالت صور العنف تتكرّر، وأصوات القهر ترتفع، ومشاهد الظلم والقتل تُخلِّف جراحًا عميقةً في الضمير الإنسانيّ. في مناطق كثيرة من العالم، يعيش الإنسان تحت وطأة الخوف وعدم الاستقرار، وكأن التاريخ يعيد إنتاج نفسه في دوائر لا تنتهي من الألم.

في هذا السياق، لا يبدو طريق المسيح غريبًا عن واقعنا، بل قريبًا جدًّا منه. لم يأتِ المسيح ليقدّم خطابًا نظريًّا عن الألم، بل دخل إلى عمقه، واختبره بكل أبعاده.

لذلك، يمكن القول إن طريق الآلام الذي سار فيه هو مرآة لطريق البشرية .

هنا يكمن قلب الرسالة المسيحية: أن الصليب ليس الكلمة الأخيرة؛ فبعد أن أُغلق القبر، وبدا أن كل شيءٍ قد انتهى، حدث التحوُّل الأكبر: «لَيْسَ هُوَ هٰهُنَا، لأَنَّهُ قَامَ

كَمَا قَالَ» (متى 28: 6). أعلنت قيامة المسيح أن الموت قد هُزم، وأن الألم -مهما بلغ عمقه- لا يملك الكلمة الأخيرة .

تعيد القيامة تعريف طريق الآلام كله؛ فالقبر، الذي يُمثّل في الوعي الإنساني نهاية كل شيء، صار في الإيمان المسيحي بداية جديدة. لم يعد القبر الفارغ رمزًا للفقد، بل علامة على إمكانية الحياة بعد الموت، والنور بعد الظلمة .

من هنا، يتولّد الرجاء الحقيقي الذي ينبع من قلب المعاناة. فطريق الآلام -مهما طال- ليس الطريق النهائي. وكل دمعة، وكل وجع، وكل تجربة قاسية، يمكن أن تكون جزءًا من قصة أكبر تنتهي بالمجد .

لا يقتصر هذا الرجاء على البُعد الفردي، بل يمتدّ إلى الواقع الإنساني العام؛ ففي عالمٍ تمزّقه الصراعات، تفتح أمامنا يقينية قيامة المسيح أفقًا جديدًا للتفكير والعمل؛ فهي تدعو الإنسان إلى عدم الاستسلام لدورات العنف، وإلى الإيمان بأن التغيير ممكن، وأن الحياة يمكن أن تنتصر على الموت بأشكاله المختلفة؛ سواء كان موتًا جسديًا، أو معنويًّا، أو اجتماعيًّا .

كما تمنح القيامة معنى جديدًا للصبر والثبات؛ فهي لا تدعو إلى الهروب من الألم، بل إلى مواجهته برجاء. وكما يقول الرسول بولس: «مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لكِنْ غَيْرَ مُتَضَايِقِينَ؛ مُتَحَيِّرِينَ، لكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ... مَطْرُوحِينَ، لكِنْ غَيْرَ هَالِكِينَ» (2كورنثوس 4: 8-9). هذا التوازن بين الواقعية والرجاء هو ما يمنح الإنسان القدرة على الاستمرار.

في نهاية طريق الآلام، لا يقف الصليب وحده، بل القبر الفارغ أيضًا. وهذه الحقيقة تغيِّر كل شيء؛ فهي تعلن أن الألم ليس عبثًا، وأن المعاناة ليست بلا معنى، وأن النهاية يمكن أن تكون بداية .

إن رسالة القيامة، في جوهرها، هي دعوة للرجاء. دعوة لأن يرى الإنسان ما وراء الألم، وأن يؤمن بأن هناك رجاء في حياته، وفي مجتمعه، وفي العالم من حوله.